

الفصل الرابع

تشويه الحلم

لو أنني سقت الآن تلك القضية : إن تحقيق الرغبة هو المعنى الذى ينطوى عليه كل حلم ، أى أن من المحال أن تكون ثمت أحلام غير التى تحقق رغبة ، لكان من المحقق مقدما أن ألقى أقطع المعارضة. سوف يقول لى القائلون: « أن تكون هناك أحلام ينبغي فهمها بكونها تحقق رغبات ، ذلك ليس بالشيء الجديد ، بل كثير من المؤلفين قد لحظوه منذ زمن طويل (أنظر رادشوك ص ١٣٧ ، ١٣٨ وفولكلت ص ١١٠ ، ١١١ وپوركينيه ص ٤٥٦ وتيسيه ص ٧٠ وحديث م . سيمون فى ص ٤٢ عن أحلام الجوع التى عرفها البارون ترنك وهو سجين ، ثم الفقرة الواردة فى ص ٨٩ عند جريزنجى (١) . وأما أنه لا وجود لأحلام غير التى تحقق رغبات ، فتعميم جديد من هذه التعميمات التى لا مبرر لها ، وهو لحسن الحظ تعميم يسهل دحضه . فالأحلام التى تطالعنا بمحتوى أليم أشد الألم دون أن تضم أقل أثر من تحقيق الرغبة ليس أكثر منها . ولا شك فى أن الفيلسوف المتشائم إدوارد فون هارتمان كان أبعد المبعدين عن نظرية تحقيق الرغبة هذه ؛ فهو يقول فى الجزء الثانى من كتابه 'فلسفة اللاشعور' (١٨٩٠ ، ٥٢ ، ٣٤٤) : وأما الحلم ، فبه تنتقل إلى النوم منغصات اليقظة ، فلا شيء ينقصه سوى الشيء الوحيد الذى قد يصلح إلى حد بين الرجل المثقف والحياة : أعنى متعة العلم والفن . . . بل إن من الملاحظين من هم أقل منه برما بالحياة وهم مع ذلك يلحون على أن الألم والضرر يكثران فى الحلم اللذة : مثال ذلك شولتس (١٨٩٣ ، ٥٧) وفولكلت (١٨٧٥ ، ٨٠) وغيرهما . وأكثر من ذلك أن السيدتين سارا ويد وفلورنس هالام قد قدرتا غلبة الألم فى الأحلام تقديرا عدديا استندتا فيه إلى دراسة أحلامهما ؛ فأحصتا فى كل مائة حلم ٥٧,٢ حلما أليما ، وأما الأحلام السارة من غير لبس فلم تعد ٢٨,٦ حلما . ثم هناك إلى جانب هذه الأحلام التى تنقل إلى النوم ما تضمنه الحياة من ضروب المشاعر الأليمة ، هناك أحلام الهيلة التى فيها يهزنا - حتى ليذهب الكرى

(١) وقديماً قال فيلسوف الأفلاطونية الجديدة أفلوطين : " إذا انبعثت الرغبة ، جات الهيلة فصورت

لنا ما يشبه موضوع هذه الرغبة . " (عن دوبرك ١٨٨٥ ، ٢٧٦) .

عنا - هذا الشعور الذى يفوق فى هوله كل شعور عداه . ولا تزور أحلام الهيلة هذه أحداً بمثل السهولة التى تزور بها الأطفال ^(١) ، وهم الذين وجدت عندهم أحلام الرغبة فى صورتها السافرة .

والحق هو أن أحلام الهيلة على التحديد تبدو عائقاً يحول دون أى تعميم للقضية التى خرجنا بها من الأمثلة المسوقة فى الفصل السابق : أن الحلم تحقيق رغبة . لا ، بل لأنها لتدفع مثل هذه القضية بالبطلان .

يبد أننا لا نجد مع ذلك كبير صعوبة فى دفع هذه الاعتراضات التى تلوح ذات قوة ملزمة . فكل ما نحتاج إليه هو أن نتذكر أن نظريتنا لا تقوم على النظر فى محتوى الحلم الظاهر ، بل هى تحيل إلى الأفكار التى يكشف عنها التفسير من وراء الحلم ، ومن الواجب أن نفرق بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن . فمن الحق أن تُمت أحلاماً يكون محتواها الظاهر من النوع الأليم ، ولكن هل حاول أحد أن يفسر هذه الأحلام وأن يكشف عن المحتوى الفكرى المستر وراءها ؟ إذا كان الجواب نفيًا ارتفع عنا كلا الاعتراضين الموجهين إلينا ؛ فقد يتبين بعد تفسير الأحلام المؤلة وأحلام الهيلة أنها أيضاً تحقق رغبات ^(٢) .

(١) أنظر حديث دوباكور عن الفزع الليل .

(٢) [١٩٠٩ :] إن من الصعب أن نتصور مدى إصرار قراء هذا الكتاب وبقائه على أن يفضوا طرفهم عن هذه التفرقة الجوهرية بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن . - [١٩١٤ :] هذا ولست أجد فى أدب الموضوع شيئاً يقرب من رأيى فى الحلم قرب تلك الفقرة التى تجيء فى مقالة ج . سوللى " الحلم من حيث هو كشف " ، والتى لا ينال من قيمتها أننى لم أستشهد بها من قبل : " وهكذا قد يتبين أن الأحلام ، مهما يكن من أمر ليست كلها ترهات ، على ما ذهب إليه بعض الثقات من أشال تشوسر وشكسبير وميلتون . فالتأليف المختلطة الناجمة عن تخيلتنا الليلية تملك مغزى وتنقل معرفة جديدة . فنقش الحلم كخطاب كتب بالشفرة لا تكاد تنم النظر إليه إلا فقد طابع الطلسمه الذى لاح له للوهلة الأولى ولبس ثوب الرسالة الجدية المعقولة . أو إذا أردت أن تغير التشبيه قليلا ، فقد نقول إن مثل الحلم كمثل مخطوط قديم مسح ليسطر فى محله كلام لا وزن له ولكننا نستطيع مع ذلك أن نثبت من وراء أحرف هذا الكلام أثراً من إفادة قديمة ثمينة . "

["Dreams as a revelation" — "It would seem, then, after all, that dreams are not the utter nonsense they have been said to be by such authorities as Chaucer, Shakespeare and Milton. The chaotic aggregations of our nightfancy have a significance and communicate new knowledge. Like some letter in cipher, the dreaminscription when scrutinized closely loses its first look of baladerdash and takes on the aspect of a serious intelligible message. Or, to vary the figure slightly, we may say that, like some palimpsests, the dream discloses beneath its worthless surface - characters traces of an old and precious communication."]

إذا اتفق أن واجهتنا مشكلة صعبة الحل ونحن بسبيل بحث علمي ، فقد يكون من النافع في أحيان كثيرة أن نضيف إلى هذه المشكلة أخرى ، على نحو ما يسهل كسر جورتين معا عن كسرهما واحدة فواحدة . وعلى ذلك فلن نواجه هذا السؤال وحده : كيف يمكن أن تكون الأحلام المؤلمة وأحلام الهيلة تحقيقات لرغبات ؟ بل نضيف إليه سؤالاً ثانياً نستطيع أن نخرج به من مناقشاتنا السابقة في أمر الحلم : تلك الأحلام التي تُبدى محتوى خالياً من اللذة والألم على السواء ثم يتضح بعد ذلك أنها تحقق رغبات ، لماذا لا تعرب عن معناها هذا إعراباً سافراً؟ إليك هذا الحلم الذي أطلنا في مناقشته ، حلم حقنة لارما : إنه لم يكن حلماً ألماً بحال ما ، ثم تبين بتفسيره أنه كان مثلاً ساطعاً على تحقيق الرغبة . ولكن لماذا أحوج الأمر إلى تفسير على الإطلاق ؟ لماذا لم يعرب الحلم عن مراده إعراباً مباشراً ؟ فالحقيقة أن حلم لارما لا يوحى للوهلة الأولى أنه يصور للحلم تحقق إحدى رغباته : فلا قارئ الحلم قد خرج من قراءته بهذا الشعور ، ولا أنا نفسي كنت أعلمه حتى أخذت في تفسيره . فإذا سمينا هذا المسلك الذي يتطلب تعليلاً ظاهرة تشويه الحلم ، كان سؤالنا الثاني هو : ما منشأ هذا التشويه في الأحلام ؟

ههنا قد تخطر لنا على الفور عدة من الحلول الممكنة لهذه المشكلة ، كأن نقول : إن النوم يتضمن ضرباً من العجز عن الإعراب عن أفكارنا الحلمية إعراباً مباشراً . ولكن ثم أحلاماً يحملنا تحليلها على التماس تعليل آخر لتشويه الأحلام . وأمثلة لذلك بحلم آخر من أحلامي . ويجزئني هذا التمثيل من جديد إلى البوح بأمور شتى ، ولكن يعوض عن هذه التوضيح الشخصية أن تتضح المشكلة اتضاحاً تاماً .

تمهيد : علمت في ربيع عام ١٨٩٧ أن أستاذين جامعيين قد رشحاني للدرجة أستاذ مساعد^(١) . وكان هذا الخبر مفاجأة لي وكان سروري به عظيماً ؛ فقد رأيت فيه تقديراً صادراً عن رجلين جليلين ، لا يمكن عزوه إلى علاقات شخصية . ولكنني حذرت نفسي عند سماعه من أن تجرى وراء الأمل : فلقد ضربت الوزارة صفحاً عن اقتراحات من هذا القبيل في خلال السنوات الأخيرة^(٢) ، وهناك زملاء كثيرون يكبروني سناً ويعدلونني — على الأقل — استحقاقاً ظلوا مع ذلك سنوات ينتظرون هذا المنصب هباءً ، ولم يكن

(١) [ترجمة تقريبية لما يسمى في جامعات النمسا "Professor extraordinarius" .]

(٢) [كانت أمثال هذه الترقيات تصدر إذ ذاك بقرار من وزير المعارف .]

ثم أى سبب يجعلنى أتوقع أن تتغير الحال معى . لهذا وطلدت النفس على الحية ، ولست - فيما أعلم - بالرجل الواسع المطامع ، ثم إنى كنت ألاقى فى مهنتى نجاحا مرضيا من غير حاجة إلى أن يزكىنى لقب . وعلى أية حال لم يكن ثمّت مجال للسؤال عن العنب أحلو هو أم مر ؛ فقد كان من المقطوع به أنه كان مرتفعا جدا .

وفى ذات مساء زارنى صديق من أولئك الزملاء الذين اتخذت لنفسى من مصيرهم نذيرا ؛ فقد ظل زمانا طويلا مرشحا للدرجة الأستاذية التى تجعل من الطيب فى مجتمعنا نصف إله فى نظر مرضاه . إلا أنه كان أقل منى استسلاما ، فكان يتردد بين الحين والحين على مكاتب الوزارة ، مذكرا كبار المسئولين ، آملا تحقيق مطلبه . وكان مجيئه إلى بعد زورة من هذه ، فقص على كيف أنه فى هذه المرة قد جذب الكبير المسئول إلى أحد الأركان ثم سأله إذا كان تعويق ترقيته لا يرجع فى حقيقة الأمر إلى اعتبارات دينية ^(١) . فكان الجواب هو : إنه بالنظر إلى تيار المشاعر العامة فى الوقت الحاضر ، فإن معالى الوزير لا يجد نفسه - مؤقتا - فى موقف يسمح له . . . إلخ . ثم أردف صديق قائلا : « الآن أعرف على الأقل أين أنا ، محتما بذلك روايته التى لم تكن تحمل إلى جديدا وإن دعمت تسليمى بالأمر الواقع ؛ فتلك الاعتبارات الدينية تصدق على كذا .

وفى الصباح الذى أعقب هذه الزيارة وقع لى الحلم الآتى ، وهو حلم استرعى نظرى من أجل الصورة التى اتخذها كذلك ؛ فقد تكون الحلم من فكرتين وصوريتين : فكرة فصورة ثم فكرة فصورة . ولا أذكر هنا سوى النصف الأول وحده ، لأن النصف الآخر لا علاقة له بالفرض الذى من أجله أورد هذا الحلم .

١ - صديقى ر . هو عمى - أشعر نحوه بحنان كبير .

٢ - أرى وجهه أمامى وقد أصابه بعض التغيير : كأنه استطال . تبرز فى وضوح شديد لحية صفراء

أحاطت به .

ثم يعقب الجزءان الآخرا اللذان أحذفهما : فكرة أيضا فصورة .

ولقد وقع تفسير الحلم على هذا النحو :

عندما خطير هذا الحلم بيالى فى خلال الصباح ، ضحككت وحدثت نفسى قائلا :

هذا الحلم هراء . ولكن الحلم لم ينفك عنى ، بل ظل يلاحقنى طوال النهار ، إلى أن أثبت

(١) [كانت المشاعر المعادية للسامية متأجبة فى ذلك الوقت فى فيينا ، وفرويد - كما نعلم - يهودى .]

نفسى أخيرا ، فى المساء ، قائلا : « لو أن مريضا من مرضاك لم يجد فى خلال تفسير حلمه خيرا من قوله : إن هذا الحلم هراء ، لأخذت فى تأنيبه ولظننت أن الحلم يخفى قصة كريمة يريد الحلم أن يجنب نفسه مؤرثة العلم بها . فخذ نفسك بما تأخذ به غيرك . إن اعتقادك أن الحلم هراء إنما يدل على مقاومة باطنة بإزاء تفسيره . فابدأ ، ولا تدع مانعا يمنعك . » وعلى ذلك شرعت أفسره .

« ر . هو عمى . » ما معنى ذلك ؟ إنى لم يكن لى قط سوى عم واحد ، عمى يوسف (١) . وكانت لهذا العم قصة مؤثرة : فقد حدث مرة — منذ أكثر من ثلاثين عاما — أن دفعه الطمع فى الكسب إلى التورط فى صفقة من النوع الذى يعاقب عليه القانون عقابا صارما ، وكان أن عوقب . وكان من عادة والدى الذى شاب رأسه من الحزن فى أيام معدودات أن يردد دائما قوله : إن العم يوسف ليس بالرجل الشرير ، ولكنه أبله — تلك كانت كلماته . فلو كان صديقى ر . هو عمى يوسف ، لكان معنى ذلك أنى أقول : إن ر . أبله . أمر لا يكاد يصدق ، كريمة على النفس كل الكراهة ! ولكن هناك الوجه الذى أراه فى الحلم بملامحه المستطيلة ولحيته الصفراء . لقد كان لعمى حقيقة وجه كهذا الوجه ، مستطيل الشكل ، يحيط به إطار من لحية جميلة شقراء . وأما صديقى ر . فكان فى أول أمره أسود الشعر حالكة . ولكن ذوى الشعور السوداء إذ تتقدم بهم الأيام يفقدون بهاء شبابهم . فلحاؤهم الداكنة يدب فيها — شعرة فشعرة — تحول فى اللون لا يسر ، فهى تصير فى بادئ الأمر ضاربة إلى الحمرة ، فضاربة إلى الصفرة ، ثم تحول بعدئذ فقط إلى الرمادى الخالص . وقد كانت لحية صديقى ر . تمر بهذا الطور الأخير — وكذلك كانت بعد لحيتى ، كما كنت ألحظه فى غير رضا . فالوجه الذى أراه فى الحلم هو وجه صديقى ر . ووجه عمى فى آن معا : إنه كان أشبه بصور جالتون المركبة — فقد كان جالتون يطبع على اللوحة الواحدة وجوها متعددة إظهارا لما قد يكون بين ذوى القربى من الشبه المشترك . وما من شك إذن فى أنى كنت أعنى أن أصف صديقى ر . بالبله — مثل عمى يوسف .

ولست أعلم حتى الآن ما هو الغرض الذى أتوخاه من هذه المماثلة التى لا أزال أتور

(١) من العجيب أن نلاحظ كيف ضاق نطاق ذاكرتى — ذاكرتى المستيقظة — فلما يمد يتسع لغير أغراض التحليل . فالحقيقة هى أنى أملك خمسة أعمام ، أحببت واحدا منهم وأجلته ، ولكننى ما أن تغلبت على المقاومة التى كانت تصدقنى عن تفسير الحلم حتى قلت لنفسى : إنى لم يكن لى قط سوى عم واحد — العم المقصود فى الحلم .

عليها . ثم هي مع ذلك مماثلة لا عمت فيها . فقد كان عمي مجرما ، على حين أن صديقي ر . برى من كل شائبة . . . اللهم إلا من غرامة أدين بها يوما لأنه صدم صيبا بدراجته . أياكون أنى أفكر فى هذه الفعلة ؟ إن معنى ذلك هو أنى أجرى المماثلة مجرى المزاح . ولكننى أذكر الآن حديثا دار منذ بضعة أيام بين زميل آخر - هو ن . - وبينى ، وأذكر أن مدار الحديث كان هذا الموضوع عينه . فقد قابلت ن . فى الطريق ، وكان أيضا مرشحا للدرجة الأستاذية ، فلما علم أنى نلت مثل هذا الشرف هنأنى عليه . ولكننى قاطعته قائلا : « إنك آخر من يحق لم المزاح فى هذا الباب ؛ فأنت تعلم من خبرتك نفسك ما هي قيمة مثل هذا الترشيح . » فأجابنى وهو فى الأغلب غير جاد : « من يدري ؟ فالموقف يختلف معى . ألا تعلم أن امرأة قد أهتمنى يوما فى ساحة القضاء ؟ لا أظننى بحاجة إلى أن أؤكد لك أن الحق قد رجع إلى نصابه وأن الأمر لم يعد أن يكون محاولة ذنيثة للابتزاز ، ولقد تحملت مع ذلك كل مشقة لكى أجنب تلك المبلغة الكاذبة جزاءها . ولكن ربما كان القوم فى الوزارة يتخذون من هذه القصة تعلقة للحيلولة دون ترقيتى . وأما أنت فلا شائبة تعلق بك . » وهأنذا إذن أملك المحرم وأملك معه تفسير الحلم ومرماه : فعنى يوسف يصور لى كلا الزميلين اللذين لم يرقيا إلى الأستاذية : فأما أولهما ؛ فلأنه أبله . وأما آخرهما ؛ فلأنه مجرم . وأعلم الآن أيضا ما هو وجه الحاجة إلى هذا التصوير : فلو قد كان لعامل الدين أثر فى إرجاء ترقية صديقى ، لكانت ترقيتى كذلك فى خطر ، فإن استطعت أن أجد لإخفاقهما عللا أخرى ، بقى لى الأمل دون أن يضطرب . وعلى هذا يعمل الحلم : فهو يجعل من الأول أبله ويجعل من الآخر مجرما - ولما كنت ولست بهذا ولا بذلك ، فلا شئ يجمع بيننا ومن حتى أن أهنى نفسى على الأستاذية وأن أستثنى شخصى فلا أطبق عليه النتيجة المؤتسة التى تخلص من رواية صديقى ر . عن حديث الموظف الكبير إليه .

بيد أنى لا أجد بدا من المضى فى تفسير هذا الحلم إلى أبعد من هذا المدى ؛ فما زلت أشعر بأننى لم أنته منه إلى النهاية التى أرتضيها ، وأنا لا أزال أضطرب لهذا الاستخفاف الذى أضع به من قدر زميلين جليلين لكى يخلو لى الطريق إلى الأستاذية . نعم ، إن من المستيقن أن سخطى على هذا الأسلوب قد أدركه الوهن منذ تعلمت كيف أقدر شهادة الحلم حق قدرها : فلا أخالنى إلا منكرًا أشد الإنكار كل إشارة قد يفهم منها أنى أعد ر . أبله حقيقة ، أو أنى لا أصدق حقيقة قصة البلاغ الكاذب كما رواها ن . ، ولا أنا

أصدق بالطبع أن إرما قد أصابها مرض خطير لأن أوتو حققها بحقنة من البروبييل ؛ فالحلم هنا ، شأنه هنالك ، إنما يعرب عن رغبتى فى أن تكون الأمور كذلك . كل الفارق هو أن العبارة التى تتحقق فيها رغبتى تلوح فى الحلم الثانى أقل سخفا منها فى الحلم الأول ؛ فهى قد صيغت فى هذه المرة باستخدام بعض السند من الواقع استخداما أكثر مهارة ، كتجريح ذكى يُخَيِّلُ إليك أن « من وراء الدخان ناراً » : فقد وقع إذ ذاك لصديقى ر . أن أستاذا من كليته قد صوت ضده ، وأما صديقى ن . فقد زودنى هو نفسه بمادة القذف من حيث لا يدرى . ولكننى - مع هذا كله - أعود فأقول : إن الحلم لا يزال يقتضى مزيداً من الإيضاح .

إنى أذكر الآن أن هذا الحلم قد احتوى جزءاً آخر أغفل التفسير أمره حتى الساعة : ذلك أننى بعد أن خطر لى أن ر . هو عمى شعرت فى الحلم بحنان كبير نحوه . فإلى من يتجه هذا الشعور ؟ فأما عمى يوسف ، فطبعى أننى لم أشعر نحوه بمثل هذا الشعور فى يوم من الأيام . وأما صديقى ر . ، فقد ظلت سنوات أكن له المودة والتقدير ، ولكننى لو قد ذهبت إليه لأعرب له عن مودتى فى كلمات تقارب الحنان الذى خالجنى فى الحلم لما كان دهشه من غير شك بالقليل . فحنائى فى الحلم نحوه يظهر لى زائفاً مبالغاً فيه ، مثل حكى على مقدراته العقلية ، وهو الحكم الذى أعربت عنه حين أدمجت شخصيته فى شخصية عمى ، وإن تكن المبالغة قد اتخذت هناك الاتجاه المضاد . ولكن ضوءاً جديداً قد أخذ يشرق الآن على : فالحنان الذى أحسسته فى الحلم لا ينتمى إلى المحتوى الكامن ، إلى الأفكار المستترة خلف الحلم ، بل هذا الحنان ضد هذا المحتوى وما أريد به سوى أن يخفى عنى تفسير الحلم . والراجع أن ذلك على التحديد كان الداعى إلى وجوده . وأذكر الآن كيف أخذت فى تفسير هذا الحلم على كره منى ، وكيف انتحلت الأعذار لإرجائه زمناً طويلاً ، وكيف قلت : هذا الحلم هراء محض . ولقد علمتنى ممارسة العلاج بالتحليل النفسى كيف ينبغي تفسير هذا النوع من النبذ : إنه مجرد من كل قيمة من حيث هو حكم ، ولا يعدو أن يعرب عن شعور قائله . فابنتى الصغيرة إذا رغبت عن تفاحة قدمت إليها ، أكدت أن التفاحة مُرّة وهى لم تذوقها . فإن صنع مرضاى صنيع الصغيرة علمت أن ثمت خاطراً يريدون له الكبت . وهذا عينه يصدق على حلمى : فأنا لم أكن أرغب فى تفسيره ؛ لأن تفسيره ينطوى على شيء أغالبه . وأعلم الآن - بعد أن أكملت التفسير - ما هو هذا

الشيء ، إنه قولى : إن ر . أبله . ولست أستطيع أن أرجع الحنان الذى أحسست به إلى أفكار الحلم الكامنة ، بل الأحرى إرجاعه إلى تلك المغالبة . فإذا كان الحلم قد شوه فى هذا الموضوع بالقياس إلى محتواه الكامن - وشوه بحيث ينقلب إلى ضده - فقد كان الحنان الظاهر فى الحلم مطية هذا التشويه ، أو بعبارة أخرى : إن التشويه يتبين فى هذه الحالة تشويها متعمدا وطريقة من طرق الاستخفاء . فأفكار الحلم كانت تتضمن قلحا فى ر . ، ولكى أعمى عن هذا القدح ، ظهر فى الحلم الضد ، ظهر نحوه حنان شديد .

إن من الحائز أن يكون ذلك كشفا شامل الصديق . نعم ، إن من الحق أن هناك أحلاما يتجلى فيها تحقيق الرغبة من غير خفاء - كما اتضح من أمثلة الفصل الثالث - ولكن حينما خفيت الرغبة أو تقنعت ، وجب أن يكون ثمت باعث يبعث المرء على أن يقف من هذه الرغبة موقف المدافع ، ويكون من أثر ذلك أن تعجز الرغبة عن أن تفصح عن نفسها إلا إفصاحا مشوها . وهذا الذى يحدث فى مجال الحياة النفسية سأحاول أن أجد له نظرا فى حياة المجتمع : أين نصادف فى مجال الحياة الاجتماعية مثل هذا التشويه للأفعال النفسية ؟ نصادفه حينما نجد شخصين حظ أحدهما أن يملك القوة وحظ الآخر أن يحسب هذه القوة حسابها ، حينئذ نرى هذا الشخص الثانى يشوه أفعاله النفسية ، ونستطيع كذلك أن نقول : إنه يستخفى . والأدب الذى أمارسه فى كل يوم هو إلى مدى بعيد استخفاء من هذا القبيل . وإنى حين أفسر للقارئ أحلامى أرانى مضطرا إلى مثل هذا التشويه . ومن ضرورة مثل هذا التشويه يشتكى الشاعر إذ يقول :

« ثم إن خير ما تستطيع علمه ، قد لا تملك قوله للصبيان . » (١)

ويعرف الكاتب السياسى مثل هذا الموقف ، إذا كانت لديه حقائق لا تسر ذوى السلطان . فهو إن أعرب عن رأيه فى غير موارد قمعت الحكومة كلماته - قمعا رجعيا

(١) [بيتان لجوته ، يجرهما على لسان مفيستوفليس أثناء الحوار بينه وبين فاوست فى المشهد الرابع من الجزء الأول من "فاوست" . والمراد بالصبيان هم التلاميذ الذين يأخذون عنه المعرفة . وقد كان فرويد يجب الاستشهاد بهذين البيتين ؛ فهو يذكرهما فى موضع آخر من "تفسير الأحلام" ، وكان قد استشهد بهما قبل ذلك فى خطاب إلى فليس بتاريخ ٣ من ديسمبر سنة ١٨٩٧ وخطاب بتاريخ ٩ من فبراير سنة ١٨٩٨ (فرويد ١٩٥٠ أ) ، ثم رجع فاستشهد بهما فى أواخر حياته بمناسبة منحه جائزة جوته الأدبية سنة ١٩٣٠ ، مطبقا لإياها فى هذه المرة على جوته نفسه (فرويد ١٩٣٠ ب) .]

إن كان قد أدلى برأيه مشافهة، وقمعا وقائبا إن كانت كلماته لا تزال في سبيلها إلى النشر . فعلى الكاتب أن يحسب للرقابة حسابها ، وهو من أجل ذلك يتلطف في تعبيره ويشوهه . وقد يرى نفسه مضطرا - على حسب شدة الرقيب وحساسيته - إما إلى مجرد الإقلاع عن بعض صور المهاجمة ، أو إلى التحدث تلميحاً لا تصريحاً ، أو إلى أن يخلع على روايته غير المرضي عنها ثوبا من البراءة ، فيتحدث مثلا عن خلاف بين كبيرين من كبراء الصين ، بينما المعنى^٤ كبيران في بلده . وكلما زادت الرقابة ضغطا ، زاد التتبع استحضالا وربما زادت كذلك الحيل التي يشتم منها القارئ حقائق الأمور^(١) .

(١) لقد روت الدكتور هـ . فون هوج - هلموت (١٩١٥) حيلما ربما كان أصلح من أي حلم آخر في تبرير المصطلحات التي اخترتها . فالتشويه في هذا الحلم يستخدم طريقة لا تختلف عن الطريقة التي كانت تعمد إليها رقابة البريدي في خلال الحرب للتخلص من الفقرات التي تثير اعتراضها : كانت للرقابة تلمحا إلى ترجيم مثل هذه الفقرات ترجيما تاما لكي تجعل من قراءتها شيئا مستحيلا، بينما عمدت رقابة الحلم إلى إحلال دمنسة غير مفهومة في مكانها .

ولكي نفهم هذا الحلم أذكر أن الحاملة كانت سيدة محترمة ، على درجة عالية من الثقافة ، بلغت الخمسين من عمرها . وهي أرملة توفى زوجها - وكان ضابطا كبيرا - منذ اثني عشر عاما ، ولها ولدان راشدان كان أحدهما في جبهة القتال حين وقع الحلم .

وإليك الآن حلم " خدمات الحب " [اللفظ الألماني " Liebesdienste " يعني أولا الخدمات المبجلة من غير مقابل ، أي بدافع من الحب ، ولكنه ينطاع أيضاً لتأويل آخر يسهل إدراكه] : « تنهب الحاملة إلى المستشفى رقم ١ ، وتخبر الحارس الواقف بالباب أنها يجب أن تقابل الطبيب الأول . . . (وهنا تذكر اسما لا عهد لها به) ؛ لأنها تريد للتطوع للخدمة في المستشفى . بيد أنها تنطق كلمة " الخدمة " بطريقة تجعل ضابط الصف يدرك على الفور أنها تعني " خدمة حب " ، فيتردد بعض التردد ، ولكنه يدعها تمر ؛ لما يراه من تقدمها في السن . غير أن السيدة بدل أن تنهب إلى الطبيب الأول ، تدخل حجرة كبيرة ، شبه مظلمة ، كان بها عدد كبير من الضباط والأطباء المسكرين جلسوا إلى مائدة طويلة أو وقفوا حولها . وتنتج السيدة بمقترحها إلى طبيب أركان حرب فيدرك مرادها ولما تفه إلا بكلمات قليلة . وكان نص كلامها في الحلم ما يلي : " إنني أعلم أن اقتراحنا هذا يبدو لكم على جانب كبير من الغرابة ، ولكننا جادات فيه غاية الجِد . ولا يسأل الجندي في الميدان أيريد الموت أم لا يريد . " وهنا يسود صمت أليم خلال بضع دقائق . ثم بعد ذلك يطوقها ضابط أركان الحرب بلترامه ويقول : " يا سيدتي الكريمة ، تصوري ماذا يكون الموقف ، لو أن الأمر انتهى حقيقة إلى . . . " (دمنسة) فتقلت منه وهي تحدث نفسها قائلة : " إنه لا يختلف عن غيره " ، ثم تجيبه : " يا إلهي ، إنني سيدة متقدمة في السن ، وأظن أذنني لن أنتهي إلى ذلك أبدا . وهناك على أية حال شرط واحد تجب ملاحظته : مراعاة السن ؛ فلا ينبغي لسيدة عجوز وفق حدث . . . (دمنسة) ، إن ذلك يكون أمرا مروعا . - ويوجب الطبيب : " إنني أقدر ذلك تمام التقدير " . وعندئذ ينطلق بعض الضباط في الضحك بصوت عال ، وكان من بينهم ضابط كان قد طلب يدها وهي في شبابه . وتعرب السيدة عن رغبتها في أن ترى الطبيب الأول الذي تعرفه معرفة شخصية لكي تنهي معه هذه المسألة جميعها . ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أنها لم تكن تعرف اسمه . بيد أن طبيب أركان الحرب يريها في أدب واحترام بالعين سلما من الحديد ، حلزونيا ، شديد الضيق ، يسلم مباشرة إلى الطابق

هذا التطابق الذى يمس دقائق التفاصيل بين ظواهر الرقابة والتشويه يحول لنا أن نفترض أن لكليهما شروطا مماثلة . وفي مقدورنا إذن أن نقول : إن الذى يعين شكل الحلم عند كل فرد قوتان (ونستطيع أن نسميهما تيارين أو نظامين) ، إحداهما هى الرغبة التى يعرب عنها الحلم ، والأخرى هى التى تقوم بالرقابة على هذه الرغبة وبذلك تؤدى بالضرورة إلى تشويه التعبير عنها . ولا يبقى إلا أن نسأل : فيم تقوم سلطة هذا النظام الثانى ، تلك السلطة التى تمكنه من أن يفرض رقابته ؟ إذا لم ننس أن أفكار الحلم الكامنة هى أفكار لم تكن نشعر بها قبل أن نقوم بالتحليل ، على حين أننا نتذكر الحلم الناشئ عنها تذكرنا شعوريا ، لم نكن بعيدين عن أن نقدر أن المزية التى يحظى بها هذا النظام الثانى هى مزية الإذن بدخول الشعور . فلا شيء يدخل الشعور من النظام الأول إلا مر بهذا النظام الثانى ، كما أن هذا النظام الثانى لا يترك شيئا يدخل الشعور بدون أن يمارس حقوقه ودون أن يدخل على الفكرة الصائرة إلى الشعور كل ما يراه مناسبا من التغييرات . ونحن نتوسم من وراء ذلك فكرة محدودة تمام التحديد عن « ماهية » الشعور : فالصيرورة إلى الشعور تصبح فى نظرنا فعلا نفسيا خاصا ، له تميزه واستقلاله عن عملية تكوين الأفكار أو التصورات ، كما أن الشعور يتبدى لنا فى صورة عضو من أعضاء الحس يتناول بإدراكه مادة تنشأ فى جهات أخرى . ومن الممكن أن نبين أن علم الأمراض النفسية لا يملك الاستغناء عن هذه الفروض الأساسية بحال من الأحوال . بيد أننا لا نجد بدا من أن نرجى النظر فى هذه الفروض إلى موضع آخر . [أنظر الفصل السابع ، وبخاصة القسم و .]

فإذا أخذنا بفكرة النظامين النفسيين وعلاقتهم بالشعور ، وجدنا فى مجال الحياة السياسية مثلا يصور أحسن التصوير هذا الحنان العجيب الذى شعرت به فى الحلم نحو صديقي ر . مع ما أظهره التفسير من حط قدره : إنى أتخيل الحياة السياسية فى بلد يغار حاكمه على سلطته أشد الغيرة وينازعه إياها رأى عام يقظ : قد يثور الشعب على رجل من رجال الدولة بغيبض إليه ويطالب بإقالته ، ولكن الحاكم المستبد يريد أن يظهر ازدرائه

الثانى . وبينما تصعد تسع ضابطا يقول : " إنه قرار ما أجسمه ، ويستوى أن تكون صاحبه صغيرة السن أو متقدمته ، لما كل إجلالنا ! "

« وتمضى الحاملة مصعدة فى درجات لا تنتهى ، يملؤها الشعور بأنها إنما تؤدى واجبا . وتكرر هذا الحلم مرتين فى خلال بضعة أسابيع دون أن يمس - على حسب ما لاحظته السيدة - سوى تغيير مجرد من كل أهمية أو مغزى . »

لإرادة الشعب ، فإذا هو يخلع على رجل الدولة هذا شرفا كبيرا ما كان ليمنحه إياه لولا ذلك . وعلى هذا النحو يوجد النظام الثاني الذى يتحكم عندى فى الطريق إلى الشعور بطفحة من الحنان على صديقى ر . ، لا لشيء سوى أن النوازع المتمية إلى النظام الأول كانت تبغى لو رمت ر . بالبله ؛ لمنفعة خاصة كانت تجذبها فى ذلك الحين ^(١) .

لعلنا نلمح الآن أن فى مقدور تفسير الأحلام أن يلقى على تركيب جهازنا النفسى ضوءا ظللنا نتظره عبثا من الفلسفة . بيد أننا لن نسلك هذه السبيل ، بل نعود وقد وضحنا أمر تشويه الحلم - إلى المشكلة التى ابتدأنا منها . لقد كان سؤالنا هو : كيف يمكن أن ترد الأحلام الأليمة إلى تحقيقات للرغبات؟ وما نحن أولاء نرى أن ذلك أمر ممكن إذا طرأ التشويه على الحلم ، وإذا لم يكن المحتوى الأليم سوى قناع لأمر تتجه الرغبة إليه . ويمكننا أيضا أن نقول بالإشارة إلى ما افترضناه من وجود نظامين نفسيين : إن الأحلام الأليمة تتضمن حقيقة شيئا مؤلما بالنسبة إلى النظام الثانى ولكنها تحقق فى الوقت عينه رغبة للنظام الأول ؛ فهى أحلام رغبة من حيث أن كل حلم يصدر عن النظام الأول ، وأما علاقة النظام الثانى بالحلم فعلاقة دفاعية لا إنشائية ^(٢) . ولو أننا قصرنا أنفسنا على النظر فيما يضيفه النظام الثانى إلى الأحلام ، ما أمكننا قط أن نتوصل إلى فهمها : إن جميع الألفاظ التى لاحظ المؤلفون أمرها فى صدد الحلم تظل عندئذ قائمة .

أن يكون لكل حلم حقيقةً معنى مستتر لا يخرج عن أن يكون تحقيق رغبة أمر يجب تبيانه بالتحليل فى كل حالة من جديد . وعلى ذلك أنتخب قليلا من الأحلام ذوات المحتوى الأليم وأحاول تحليلها . وبعض هذه الأحلام قد أتاه أشخاص هستريون ، وهى

(١) إن أمثال هذه الأحلام المناقفة غير نادرة الوقوع سواء عندى أم عند غيرى . ولقد اتفق بيننا كنت أشتغل بمشكلة علمية معينة أن أزعجنى حلم عاودنى فى خلال عدة ليالى متقاربة . وكان مضمونه هو الصلح مع صديق كنت قد تحولت عنه منذ زمن بعيد . وأخيرا ، بعد المرة الرابعة أو الخامسة ، أفلحت فى فهم هذا الحلم : إنه كان تحريضا على أن أدع البقية الباقية من الاعتبار الذى كنت أكنه لهذا الشخص ، وعلى أن أحرر نفسى منه تحريرا تاما ، وهو ما تقنع بقناع الضد نفاقا . ولقد ذكرت فى موضع آخر (١٩١٠ ل) حلما حلمه البعض فيه حل الحنان الظاهر محل النزعات العدوانية ورغبات الموت المتضمنة فى الأفكار الكامنة . وسوف أذكر فيما بعد نوعاً آخر من أحلام النفاق (أنظر الفصل السادس " عمل الحلم " ص ٧١ ٤ وما بعدها) [الصديق المشار إليه فى هذا الهامش هو من غير شك فيلهلم فليس ، والهامش كله قد أضيف فى سنة ١٩١١ .]

(٢) [١٩٣٠ :] سوف نصادف أيضا - فيما بعد - أمثلة أخرى تعرب - على العكس - عن رغبة لهذا النظام الثانى . [أنظر " أحلام العقاب " فى الفهرست التحليلى .]

إذن تستدعى تمهيدا طويلا وتستدعى في بعض المواضع غوصا في العمليات النفسية التي تتميز بها المستريا . ولكنني لا أجد سبيلا إلى إزالة هذه الصعوبات التي تثقل عرض حجتي .

عندما أعالج أحد العصائين بالتحليل النفسي ، فالقاعدة — كما سبق أن ذكرت — هي أن تغلو أحلامه موضع حديثنا . ولست أجد بدا في خلال هذه المناقشة من أن أطلعه على كل الإيضاحات السيكولوجية التي أعانتني نفسي على فهم أعراضه . وهنا أسمع منه نقدا لا هوادة فيه ، لا يقل صرامة — على التأكيد — عن هذا الذي أتوقه من زملائي . ولم يفت مريضا من مرضاي أن ينقد قولي : إن الأحلام جميعها تحقق رغبات . وها هي ذى بضعة أمثلة من تلك الأحلام التي ساقها أصحابها تدليلا على بطلان نظريتي .

قالت مريضة فطنة من مرضاي : « إنك تقول دائما : إن الحلم يحقق رغبة . إليك إذن حلما كان على عكس ذلك تماما ؛ فقد كان مؤداه أنني لا أحقق إحدى رغباتي . فكيف توفق بين ذلك وبين نظريتك ؟ وها هو ذلك الحلم :

« أريد أن أقيم مأدبة عشاء ، ولكنني لا أجد لدى سوى قليل من سمك السلمون المدخن . أفكر في الخروج لكي أشتري شيئا ما ، ولكنني أتذكر أننا في عصر يوم الأحد وأن جميع المحال مغلقة . فأحاول الاتصال ببعض الموردين ولكن التليفون كان متعللا . وعلى ذلك لا أجد بدا من النزول عن رغبتى في إقامة مأدبة العشاء . »

وكان جوابي بالطبع هو : أن التحليل وحده هو الذي يستطيع أن يقرر ما معنى هذا الحلم ، وإن كنت أسلم بأنه يلوح للوهلة الأولى معقولا متناسق الأجزاء ، وأنه يرينا عكس تحقيق الرغبة . « ولكن أية مناسبة دعت إلى هذا الحلم ؟ فأنت تعلمين أن الحافظ إلى الحلم يكمن دائما بين أحداث اليوم السابق . »

التحليل : إن زوج المريضة — وهو رجل أمين قدير يشتغل بتوريد اللحم بالحملة — قد أخبرها في اليوم السابق أنه أخذ يفرط في السمنة ، وأنه — لذلك — قد اعترم أن يبدأ علاجاً بخفف وزنه : أن يستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح وأن يقوم ببعض التمرينات البدنية ، مع الأخذ بنظام دقيق في التغذية ، ثم هو — قبل كل شيء — لن يقبل أى دعوة إلى العشاء . — وأضافت المريضة كيف تعرف زوجها في المطعم الذي اعتاد أن يتناول فيه وجبة الغذاء برسام ألح في طلب رسمه إلحاحا شديدا ؛ لأنه — أعنى الرسام — لم ير في

حياته رأسا كانت ملامحه مثل هذه القوة المعبرة . إلا أن زوجها أجابه بطريقة القاطعة :
 أنه شاكر جزيل الشكر ولكنه واثق من أن طرفا من مؤخر فتاة جميلة سوف يكون أحب
 إلى الرسام من رأسه هو بأكله^(١) . إنها الآن مولعة بزوجها أشد الولع ، وتتحين المناسبات
 لمعاكسته . وهي أيضا قد طلبت منه أخيرا أن يكف عن تقديم الكافيار إليها . — ما معنى
 ذلك ؟

الحقيقة هي أنها تمنى منذ زمن طويل لو قد استطاعت أن تأكل ساندويتش من
 الكافيار كل صباح ، ولكنها تغالب نفسها خشية التكاليف . إنها تستطيع بالطبع أن
 تنال على الفور كل الكافيار الذى تشاء لو قد سألت زوجها ، ولكنها طلبت منه — على
 العكس — ألا يهدى إليها شيئا منه ، لكي يتاح لها المضى فى معاكسته .

(إن هذا التعليل يبدو لى مفتعلا . وأمثال هذه البيانات غير المنقعة تسر فى العادة
 دوافع لا يصارح بها صاحبها نفسه . إنها تذكرنا بالمرضى الذين كان ينوهم برنهام تنويما
 مغناطيسيا والذين كانوا ينفذون بعد استيقاظهم ما أمروا فى خلال تنويمهم بأدائه ، فإن
 سئلوا عن دوافعهم ، لم يقولوا : لا ندري ، بل انتحلوا لفعالهم سببا يظهر للعيان بعده عن
 الصواب . وأغلب الظن أن ذلك هو الشأن فيما يتصل بكافيار مريضتى . وألحظ أنها قد
 سبقت إلى أن تخلق لنفسها رغبة غير محققة فى حياة اليقظة . والحلم أيضا يصور هذا
 النزول عن الرغبة . فما وجه حاجتها تلك إلى رغبة لا تتحقق ؟)

إن الأفكار التى ظفرنا بها حتى الآن لا تكفى فى تفسير الحلم ؛ فألح فى طلب المزيد .
 وإذا هي — بعد وقفة قصيرة تتفق والوقت الذى استغرقه ظهورها على بعض المقاومة —
 تقص على أنها فى اليوم السابق قد زارت صديقة لها تعرف مريضتى بغيرتها منها ، لأن
 زوجها لا يكف عن امتداحها . ومن حسن الحظ أن هذه السيدة نحيفة عجفاء ، بينما
 يعجب زوجها بالأشكال المليئة . والآن : عم تحدثت هذه الصديقة العجفاء ؟ تحدثت
 بالطبع عن رغبتها فى أن تمتلأ بعض الامتلاء . وهي أيضا قد سألت مريضتى : « ترى متى
 تدعيننا إلى وجبة أخرى ؟ فالطعام الذى نأكله عندك ما أطيبه دائما ! »
 والآن اتضح معنى الحلم ، وأستطيع أن أقول لمريضتى : « لكأنك — حين سألتك

(١) أنظر قولنا : « قعد للمصور » ثم بيتى جوته :

وإذا لم يكن السيد النبيل مؤخره

فكيف يستطيع السيد النبيل قعودا ؟

صديقتك سؤالها — قد حدثت نفسك قائلة : حقا ! تريدان أن أدعوك إلى منزلي حتى تأكلي وتسمني وتظفري من إعجاب زوجي بالمزيد ! إنى لأفضل ألا أدعو أحدا للعشاء بعد الآن . والحلم يقول لك : إنك لا تستطيعين أن تدعى أحدا إلى العشاء ، فيحقق بذلك رغبتك في ألا تفعل ما من شأنه أن يستدير جسم صديقتك . وإن عزم زوجك على أن يرفض دعوات العشاء تجنبا للسمنة قد ذكرك أن المرء يسمن في الولايم . ولا تنقصنا بعد ذلك إلا مصادقة تؤيد حلنا : ذلك أن مجيء السالمون المدخن في الحلم لم يكن قد تبين أمره بعد . فلما سألت المريضة : « كيف اتفق لك التفكير في السالمون ؟ » أجابت : « إن السالمون المدخن هو طبق صديقتي المفضل . » ويتفق أنني أعرف هذه السيدة ، وأستطيع أن أقول : إنها تحل لنفسها من السالمون المدخن مقدار ما تستحله مريضتي من الكافيار .

إن هذا الحلم لا يزال يقبل تفسيراً آخر ، أطف وأخفى ، تقتضيه ملابس ثنوية . ثم هو تفسير لا يتناقض وسابقه ، بل إنهما ليتداخلان ضارين لنا مثالا طيبا على هذا التكثر في المعنى الذي تنطوى عليه الأحلام عادة شأنها في ذلك شأن سائر الظواهر النفسية المرضية جميعا . فنحن نذكر أن مريضتي حين وقع لها الحلم الذي تخلت فيه عن إحدى رغباتها كانت تعمل على أن تخلق لنفسها رغبة معوقة في الحياة الواقعة كذلك (رغبة سانديويتش الكافيار) . وكانت صديقتها قد أعربت من جانبها عن رغبة لها — هي الرغبة في أن تزيد امتلاء . وما كنا لندهش لو أن مريضتي قد حلمت بأن رغبة صديقتها قد جانبها التحقيق ؛ فتلك على التحديد هي رغبة مريضتي ، إنها الرغبة في ألا تتحقق رغبة صديقتها في أن تزيد وزنا . ولكنها — بدل ذلك — تحلم بلا تحقق إحدى رغباتها هي . وإن الحلم ليكتسب تفسيراً جديدا إذا لم تكن هي المعنية في الحلم بل صديقتها ، إذا كانت قد وضعت نفسها مكان صديقتها أو عينت ذاتها^(١) بها — كما يمكننا أن نقول .

(١) [هكذا نترجم فعلا ذا أصل لاتيني ، ثم انتقل من اللاتينية إلى جميع اللغات الأوروبية ، دون أن يكون له مرادف تام في العربية . ومعنى هذا الفعل هو (أ) أن تقول عن شيئين إنهما ذات الشيء ، أن تقول عن أحدهما إنه الآخر أي أن تعرفه به ، أو (ب) أن تجعلهما كذلك . ثم استخدم فرويد هذا الفعل ليمس به العملية النفسية أو العلاقة التي يتحدث عنها الآن بين الذات وغيرها . فن الواضح من المثال الذي ذكره أن قول المريضة فيما يتصل بصديقتها : " لا أريد أن تتحقق رغبتها " قد اتخذ في الحلم صورة : " لا أريد أن تتحقق رغبتى " ومنه تظهر المساواة أو المطابقة التامة بين ياء المتكلم وضمير الغائبة . فكأن المريضة قد دلت على نفسها بصديقتها ، عرفها بها ، وهذا هو المعنى الأول للكلمة . — وننبه باختصار إلى أن الأمر لا يتعلق بالطبع بمعرفة

وأعتقد أن ذلك هو ما قد وقع حقيقة ، وإن كونها قد خلقت لنفسها رغبة محبطة في الحياة الواقعة لعلامة على هذا التعيين لذاتها بصديقتها . ولكن ما معنى هذا التعيين المسترى؟ إن ذلك ما يحتاج إلى شرح مطول . فالتعيين لحظة بالغة الأهمية في ميكانيكية الأعراض المسترية . فهو الذي يمكن المرضى من أن يعربوا بأعراضهم لا عن خبراتهم أنفسهم فقط ، بل عن خبرات عدد كبير من الناس فوق ذلك ، حتى لكأنهم يألمون

تدركها المريضة وتملكها ، أي معرفة تنطق بها وتجعلها موضع قول ، بل الأصدق هو أن نقول : إن هذه المعرفة هي التي تملك المريضة وتؤسسها وتضلعها عن حقيقتها ، إنها معرفة معاشه قبل كل شيء . ويجزنا هذا إلى المعنى الثاني : فقد " وضعت المريضة نفسها مكان صديقتها " أي أنها قد صارت هي المعوقة الرغبة ، أي هي الصديقة . وترجمتنا لا تنقل هذا المعنى الثاني نقلاً مباشراً ، ولكن يبرها أنه إذا كان الأمر كذلك ، فكأن المريضة قد تعينت بصديقتها بالمعنى الأرسطوطاليسي الذي نقول به : إن المادة تتعين بالصورة .

وإذا أردت أن تمثل العلاقة التي يراد التعبير عنها بمثال مألوف قلنا : حين نرى رجلاً انترعته شخصية نابليون عن نفسه انتراعاً جزئياً (وحيث أنه يكون الأمر غروراً ، قل أو كثر) أو انتراعاً كلياً (وحيث أنه يكون جنوناً) - فإننا نعرب عن ذلك بأن نقول حيناً : إنه « فإكر نفسه نابليون » ، ونقول حيناً آخر : إنه « عامل نفسه نابليون » . وهذه الحرية في اختيار إحدى العبارتين دليل على أننا نشعر بأن العلاقة المراد الإعراب عنها ، بين المجنون ونابليون ، هي علاقة ذات وجهين : وجه معرفي (اعتقادي) هو الذي يبرز حين نقول : فإكر نفسه (وهي معرفة هي في الوقت نفسه ضلال) ، ثم وجه معاش هو الذي يبرز حين نقول : عامل نفسه (وهو فعل هو في الوقت نفسه خيال) . ونحن نرى كيف ينطبق الفعل الأوروبي بمعنىيه على هذه العلاقة بوجهيها جميعاً أحسن الانطباق . أما بالعربية فلم نجد خيراً من قولنا إن المجنون قد " عين ذاته " بنابليون .

وأما الترجمتان الموضوعتان من قبل : تقمص وتوجد ، فلم نجد بداً من تركهما . فقد غضضنا الطرف عن الطابع المجازي لأولاهما وعن انحطاط القوى الذي في ثانيتهما - فأتجنى المناقشة إلا بعد التسليم بمقاصد الخطاب - ومع هذا يبقى سببان يحولان دون قبولهما : الأول ، هو أن كلا هاتين الترجمتين تفعل الوجه المعرفي لفكرة المراد ترجمتها إغفالاً تاماً . ولقد كنا نقض الطرف عن ذلك نظراً لأن هذا المعنى وإن كان متضمناً من غير أدنى شك في اللفظ الأوروبي إلا أن فرويد لا يبرزه في المادة صراحة حين يتحدث عن العلاقة التي يسميها بهذا اللفظ ، ولكن هناك السبب الثاني ، وهو الأهم : ذلك أن كلتا هاتين الترجمتين تعرضاننا تعريضاً شديداً لفهم التعيين الذاتي على أنه محاكاة ؛ فقولنا : " تقمص فلان فلانا أو توجد به " يحملنا فهم عادة أنه يحاكيه محاكاة شديدة ، على حين أن فرويد نفسه يفرق فيما يلى تفرقة قاطعة صريحة بين التعيين الذاتي بالمعنى التحليلي وبين العملية السيكولوجية المعروفة باسم التقليد . والحق هو أن التقليد عملية تتم بين طرفين مكونين من قبل هما المقلد والمقلد ، في حين أن التعيين الذاتي هو العملية أو العلاقة التي تتكون الذات بها وفيها . أو بعبارة سبينوزية : إن فكرة التعيين الذاتي فكرة تضمننا في مستوى الطبيعة الطابئة أو المكونة لا الطبيعة المطبوعة أو المكونة ، ويجب أن تفهم في هذا المستوى . وإن ذلك عينه هو الذي يحمل فهمها هذا عسيراً غاية العسر على غير المحللين ، فليس مثل المحلل ليدرك في وضوح العلم قول الشاعر : Je est un autre .

هذا ولقد أردنا أن نجنب القارئ كل خلط ممكن فامتنعنا في طول هذا الكتاب وعرضه عن أن نستخدم مادة " عين " إلا فيما يماثل Identifizieren فلم نقل "عين ذاته أو نفسه" إلا لمادلة sich identifizieren ، كما لم نقل

" التعيين " إلا في معنى Identifizierung] .

بوساطته نيابةً عن جمهور بأكله من الناس ، ويملاؤن بمفردهم أدوار الرواية جميعا . وسوف أسمع من يقول : إن هذا إلا التقليد المسترى المعروف ، قدرة المستريين على أن يقلدوا أى عرض قد يستدعى انتباههم عند غيرهم من الناس ، إنه المشاركة الوجدانية وقد اشتدت - إن جاز التعبير - إلى حد التكرار . بيد أن هذا القول إنما يدل على الطريق الذى تسلكه العملية النفسية فى حالة التقليد المسترى. والطريق شئ ، والفعل النفسى الذى يسلك هذا الطريق شئ آخر؛ فهذا الفعل يقوم فى عملية استنباطية لا شعورية ، كما يتضح بمثال : لنفرض أن طبيبا يعالج مريضة تعاني نوعا من التشنج فى حجرة واحدة من حجرات المستشفى مع غيرها من المرضى : إن الطبيب لن يدهش إذا رأى ذات صباح أن هذا النوع من النوبات المسترية قد وجد مقلدين ، ولن يزيد الطبيب على أن يقول : « لقد رأها سائر المرضى ، فحللوا حلولا ؛ هذه حالة من حالات العدوى النفسية » - نعم ، ولكن هذه العدوى النفسية قد وقعت على نحو يقرب من الآتى : إن المرضى يعلمون فى العادة ، كل عن الآخر ، أكثر مما يعلمه الطبيب عن كل منهم على حدة ، وهم - بعد أن تفرغ زيارة الطبيب - يتحولون إلى الاهتمام بعضهم ببعض ؛ فافرض أن مريضة قد انتابها اليوم إحدى أزماتها : إن البقية لن تلبث أن تعلم أن العلة خطاب تلقته من أهلها أو هائج غرام حاج شجوها أو شئ يشبه ذلك ، ثم إذا كل منهم تئور مشاركتها ، وتتكون فى نفسه تلك النتيجة - وإن لم تبلغ شعوره - : « إذا كان من الممكن أن يعانى المرء مثل هذه النوبة من جراء مثل هذه العلة ، فأنا أيضا قد أعانيها ؛ لأن مثل هذه العلة قد تعرض لى ، ولو كانت هذه نتيجة تستطيع أن تبلغ الشعور ، لأمكن أن تسلم إلى الهيلة من معاناة مثل هذه النوبة ، ولكنها قد تكونت فى منطقة نفسية مغايرة ؛ ولهذا كانت تنهى إلى تحقيق العرض الخوف . وهكذا لا يكون تعيين الذات بغيرها تقليدا وحسب ، بل تمثلا^(١) قائما على ادعاء علة مماثلة ؛ إنه يعرب عن فكرة « ما من فارق » ويتعلق بعنصر مشترك يظل باقيا فى اللاشعور .

ويستخدم التعيين فى المستريا - أكثر ما يستخدم - تعبيرا عن شركة جنسية . فالمرأة المسترية أسرع ما تكون - وإن لم يكن ذلك على نحو مانع - إلى أن تعين ذاتها فى أعراضها بأولئك الأشخاص الذين كانت لها بهم علاقة جنسية ، أو بمن كانت لهم بأولئك

(١) [باللفظ المعروف فى علوم الأحياء .]

هذه العلاقة نفسها . وتدخل اللغة في حسابها تصورا ماثلا للأمر ، فيقال عن العاشقين :
 لهما « شيء واحد » . ويكفي من أجل وقوع التعيين ، في الخيلة المسترية كما في الحلم ،
 أن يفكر المرء في علاقات جنسية ، دون أن تكون هذه العلاقات حقيقة بالضرورة .
 فريضتنا إنما تتبع قواعد التفكير المستري حين تعرب عن غيرها (وهي بعدُ غيرت سلم هي
 نفسها مخلوها من كل مبرر) بأن تضع نفسها موضع صديقها وتعين ذاتها بها بخلق عرض من
 الأعراض (هو الرغبة المنوعة) . ولنا أن نعرب عن العملية في كالم على النحو الآتي : إن
 المريضة قد وضعت نفسها في محل صديقها لأن صديقها قد شغلت منزلها هي في نفس زوجها ،
 ولأنها – أعني مريضتي – كانت تود لو تحل محل صديقها في إعجاب زوجها (١) .
 وأرادت مريضة أخرى (هي أمهر حالماتي) أن تنقض نظريتي في الأحلام ، فأمكن
 أن يحل حلمها حلا أقل تعقيدا وإن ظل متفقا مع ذات القاعدة : أن لا تحقق إحدى
 الرغبات معناه تحقق أخرى . ذلك أنني شرحت لها يوما أن الحلم يحقق رغبة ، فأنتني في
 اليوم التالي لحلم رأت فيه أنها تسافر وزوجة أبيها لتقضي فصل الصيف معا في الريف .
 وكنت أعلم أنها قد ثارت ثورة شعواء على فكرة المصيف قريبا من زوجة أبيها ، وأنها –
 قبل ذلك بأيام – قد أفلحت لحسن حظها في الإفلات من هذه الصعبة المخوفة فاستأجرت
 منزلا في الريف يبعدها عن حيث كانت امرأة أبيها كل البعد . وما هو ذا الحلم قد أتى
 فإذا هو يقرب هذا الوضع رأسا على عقب . ألا ينقض ذلك نظريتي في تحقق الرغبة
 بواسطة الحلم أقطع نقض ؟ يقينا ، ولا يحتاج المرء إلا إلى أن يستخرج النتيجة التي تخلص
 من هذا الحلم لكي يحصل على تفسيره : إن الذي يخلص من هذا الحلم هو أنني كنت
 على خطأ . وهكذا فقد كانت رغبتي هي أن أكون على خطأ والحلم يريها تحقق هذه

(١) إنني أسف إذ أدرج في سياق كلامي هذه الفقرات الخاصة بسيكوباتولوجية المستريا ، وهي – بعد –
 فقرات لا يمكن أن تأتي بنا بنور كبير لتقطع عرضها ولا تتراعها من محيطها . بيد أنه لو أمكن أن تدلنا هذه الفقرات على
 العلاقات الباطنة بين الأحلام والأعصاب ، لحقق ذلك الفرض الذي أوردتها من أجله . [هذه هي المرة الأولى التي
 يتحدث فيها فرويد في كتاباته المنشورة عن فكرة التعيين وإن يكن قد أشار إليها من قبل (١٨٩٧) في رسالته
 إلى فليس . وتزيد أهمية هذا النص إذا علمنا أن فرويد لا يعود إلى مثل هذا النظر المفصل إلا بعد ذلك بما يزيد
 على العشرين عاما (فرويد ١٩٢١ ج ، الفصل السابع) وأن الأمر يتعلق بفكرة لا نغالي إذا قلنا إنها حجر الزاوية
 في كل النظرية التحليلية النفسية – ونرجو أن يعللنا ذلك على الما مش الطويل الذي وضعناه في تقرير ترجمتنا لهذا
 المصطلح . هذا ويطلق لفظ التعيين أيضاً على عملية أخرى تكون جزءا من عمل الحلم ، يتحدث عنها فرويد في
 القسم ج من الفصل السادس ، ص ٣٣٠ . وهذه العملية الأخيرة تختلف في دلالتها من تلك التي تحدث عنها
 فرويد الآن اختلافاً مطلقاً – وإن اشتركت معها في الاسم .]

الرغبة . بيد أن رغبتها في أن أكون قد جانبت الصواب - وهي الرغبة التي ارتبط تحقيقها بقصة إجازة الصيف - كانت في الحقيقة تتصل بشيء آخر أكثر خطرا . ذلك أنني كنت قد استتجت في ذلك الوقت من المادة التي جلبها تحليلها أن أمرا كان له أثره الحاسم في نشأة مرضها لا بد قد وقع لها في فترة معينة من حياتها . ولكنها نفت ذلك ؛ لأنها لم تكن تذكر شيئا منه . وما لبث أن تبين أني كنت على صواب . ورغبتها إذن في أن أكون على خطأ كانت تجيب رغبة أخرى لها وجاهاها ، هي الرغبة ألا تكون قد وقعت قط تلك الأمور التي كانت المريضة قد أخذت تحذرهما إذ ذاك للمرة الأولى .

وحدث مرة أنني جازفت ففسرت من غير تحليل ما بل بتخمين محض قصة صغيرة جرت لصديق لي كان زميلي في المدرسة طيلة ثماني سنوات . فقد استمع يوما إلى محاضرة ألقيتها في دائرة صغيرة وكان موضوع المحاضرة هو هذه البدعة القائلة : إن الحلم تحقيق رغبة . فلما عاد إلى منزله حلم بأنه قد خسر جميع قضاياه - وكان محاميا - ثم جاءني يشتكيني في هذا الصدد . فكان أني تهربت قائلا : « إن المرء لا يستطيع أن يكسب جميع قضاياه . » بيد أنني قد حدثت نفسي قائلا : « إذا كنت قد ظلت ثماني سنوات وأنا أول الفصل على حين كان هو يتأرجح في مكان ما بمتصفه ، فهل من عجب في أن تساوره تلك الرغبة المتخلفة من أيام الصبا في أن أبوه يوما بالخذلان ؟ » .

وما هو ذا حلم آخر أقم طابعا ساقته أيضا لإحدى مريضاتي اعتراضا على نظرية أحلام الرغبة . كانت المريضة فتاة في مقتبل العمر ، قالت : « تذكر أن أختي لم يبق لها الآن إلا ولد واحد ، هو كارل ؛ فقد توفي أخوه الأكبر أوتو حين كنت لا أزال أسكن بمنزلها ، وكان أوتو هو الولد المفضل عندي ؛ فأنا في الحقيقة التي نشأته . نعم ، إن الولد الأصغر عزيز عليّ كذلك ، لكنه إعزاز لا يقارب ما كنت أكنه لأخيه المتوفى . وفي الليلة الماضية حلمت أني أرى كارل يرقد ميتا في نعشه الصغير وقد تشابكت يده وأحاطت به الشموع ، وبالاختصار كان المشهد شيئا كل الشبه به حين مات صغيري أوتو تلك الميتة التي تعلم إلى أي حد صدمتني . والآن خبرني ، ما معنى ذلك ؟ إنك تعرفني . هل أكون من القسوة بحيث أتمنى لأختي أن تفقد طفلها الوحيد ؟ أو أن ذلك يعني أني كنت أفضل لو كان الميت كارل وليس أوتو الذي أثرته ذلك الإيثار الكبير ؟ »

وهنا أكدت لها أن التفسير الأخير تفسير ينبغي استبعاده كل الاستبعاد . ولم يعجزني

— بعد قليل من التروى — أن آتيتها بالفسير الصحيح . وقد وسعنى ذلك لأننى كنت أعلم من قبل تاريخ الحاملة برمته .

تيمت الفتاة وهى فى مطلع حياتها فنشأت فى منزل أخت لها تكبرها فى السن كثيرا . ولقيت الفتاة بين من كانت تلقى من أصدقاء المنزل وزواره رجلا ترك فى قلبها أثرا لا يمحي . وجاء وقت لاح فيه أن هذه العلاقة التى ما كادت تبلغ مبلغ التصريح سوف تنتهى إلى الزواج ، ولكن أختها قضت على هذه الخاتمة ؛ لأسباب لم تستر قط كل الاستنارة . ولما حلت القطيعة انقطع عن المنزل الرجل الذى خصته مريضتى بجهها ، واستقلت هى بعيشها بعد أن مات أوتو الصغير الذى كانت تحولت إليه فى إبان ذلك بجهها . بيد أنهم لم تفلح فى التحرر من تلك العيلة التى أوقعها فيها تعلقها بصديق شقيقتها . كان كبير ياؤها ينهاها عن اللقاء ، لكنها كانت عاجزة عن أن تخلع حبها على غيره من الطلاب الذين تواردوا عليها . وكان من المحقق إذا أعلن رجلها الحبيب — وهو من المشتغلين بالأدب — عن محاضرة يلقيها ، أن تجدها بين سامعيه . وكانت إلى ذلك لا تترك فرصة تتيح لها أن تراه فى مكان عام دون أن تُرى . وأذكر أنها قد أبلغتني فى اليوم السابق أن الأستاذ ذاهب إلى حفل موسيقى وأنها أيضا ذاهبة إليه حتى تنعم بطبعته مرة أخرى . كان ذلك فى اليوم السابق على الحلم ، وكان يوم الحفل هو اليوم الذى قصت فيه الحلم على . وهكذا تيسر أن أستنتج التفسير الصائب : سألتها هل هناك حدث تخصه بالذكر بعد موت أوتو ، فأجابت على الفور : « طبعاً ، لقد جاء الأستاذ إذ ذاك بعد طول غيبة ، فرأيت مرة أخرى بجوار أوتو الراقدة فى نعشه الصغير » ، وكان ذلك عينه هو ما حسبت ، ففسرت لها الحلم على هذا النحو: « لو أن الولد الآخر مات الآن ، لتكرر ذلك مرة أخرى . سوف تقضين اليوم فى منزل أختك ، ويحى الأستاذ على التأكيد للتعزية وتربينه من جديد فى ذات الملابس التى رأيت فيها من قبل . ولا يعنى الحلم سوى هذه الرغبة فى العودة إلى رؤيته ، تلك الرغبة التى تكافحيتها فى دخيلة نفسك . وأعلم أنك تحملين فى حقيبتك تذكرة لحفل اليوم ؛ فحلمك حلم صبر نافذ : إنه يستبق لقاء اليوم بساعات قلائل . »

فالمریضة لكى تخفى رغبتها قد اختارت موقفا جرت العادة على أن تكبت فيه أمثال هذه الرغبات ، موقفا يطغى فيه الحزن على المرء فلا يجد متسعا للتفكير فى الحب . ومع هذا فإن من الممكن كل الإمكان أن تكون الفتاة قد عجزت — حتى وهى واقفة حقيقة بجانب

نعش الولد الأكبر الذى آثرته بجها - عن أن تكبت مشاعرها الرقيقة تجاه ذلك الزائر الذى طالما اشتاقت إليه .

وهناك حلم آخر يماثل الذى سبق، بيد أنه لقي تفسيراً مختلفاً ، وهو حلم أخته مريضة عرفت فى صباحها بسرعة النكته ومرح المزاج وكانت لا تزال تبدى هذه الصفات فى المستدعيات التى كانت تدور بخاطرها فى أثناء العلاج على الأقل . فقد خيل إلى هذه السيدة ، ضمن ما خيل إليها فى سياق حلم طويل ، أنها ترى ابنتها الوحيدة البالغة من العمر خمسة عشر ربيعاً وقد رقدت أمامها فى صندوق رقدة الموت . وكانت السيدة تود لو قد أقامت من ظاهر حلمها حجة على نظرتي ، ولكنها كانت تشعر هى نفسها بأن ملابسة الصندوق تنطوى لا محالة على ما قد يؤدي إلى فهم مختلف للحلم^(١) . وأخذنا فى التحليل فخطر لها أن الحديث قد دار فى سهرة الأمس حول كلمة "box" الإنجليزية وحول الكلمات الألمانية التى تترجم معانيها المختلفة فى الإنجليزية ، مثل Schachtel [صندوق] و Loge [مقصورة] و Kasten [خزانة] و Ohrfeige [لكمة] . وكان فى سائر فقرات ذلك الحلم ما يسمح لنا بأن نضيف إلى ذلك أن السيدة قد حدثت العلاقة بين الكلمة الإنجليزية "box" وبين الألمانية "Büchse"^(٢) وأنها قد تذكرت عندئذ - ولم تبرحها الذكري - أن كلمة "Büchse" تستخدم فى لغة السوق للدلالة على الأعضاء التناسلية عند المرأة . وبهذا أمكننا أن نسلم - مع قليل من التسامح تجاه معرفتها بالتشريح الموضعى - بأن وجود الطفلة فى الصندوق كان يعنى جنينا فى رحم أمه . فلما بلغنا من الاستنارة هذا المبلغ ، لم تعد المريضة تنكر أن الصورة كانت تعرب حقيقة عن رغبة من رغباتها . فهى - شأن الكثيرات من الزوجات الصغيرات السن - لم تستشعر أقل سعادة حين رأت نفسها حاملاً ، بل هى قد صرحت أكثر من مرة بما كانت تتمناه من موت الطفل وهو جنين . وأكثر من ذلك أنها قد أخذت مرة - فى نوبة من الغضب أعقبت مشادة حامية مع زوجها - أخذت تفرع بطنها بقبضتى يديها لكى تصرع الجنين الذى تحمله . وهكذا كانت صورة الحلم تحقق بالفعل رغبة ، ولكنها رغبة انطوت منذ خمسة عشر عاماً . وما من عجب إذا كان المرء لا يرجع يعرف رغبة له تحققت بعد هذا الإرجاء الطويل ؛ فكم تبدلت فى خلال ذلك بالأمر أمور .

(١) كما كان الشأن مع السالمون المدخن فى حلم الرغبة المنموعة [ص ١٧٢] .

(٢) وتعنى آنية أو وعاء . وتنطق " بوكسه " بضممة مشمومة الكسر .

وسوف أعود، تحت باب الأحلام النمطية [القسم د من الفصل الخامس] إلى هذه الطائفة من الأحلام التي ينتمى إليها الحلمان الأخيران والتي يمثل محتواها موت قريب عزيز. وسوف أتمكن من أن أبين ببعض الأمثلة الجديدة كيف يجب تفسير هذه الأحلام بكونها تحقق رغبات على الرغم من محتواها غير المرغوب فيه . وأما الحلم الآتي الذي رواه صاحبه أيضا لكي يردني عن التعجل في تعميم نظريتي ، فلا أدين به لمريض بل لرجل نابه من رجال القانون تربطني به معرفة وثيقة . قال محدثي : « حلمت أني أسير أمام منزل وقد اتكأت سيدة على ذراعي . وهناك أرى عربة مغلقة ورجلا يخرج منها ويتجه نحوي ثم يطلعتني على ما يبث أنه من ضباط الشرطة ويطلب مني أن أتبعه ، فأرجونه أن يمهلني برهة أرتب فيها حوائجي . أفعتقد أنني ربما رغبت في أن يقبض علي ؟ » - فلا أجد إلا أن أجيبه : « كلا ، يقينا . ولكن أترك تذكر لأي تهمة قبض عليك ؟ » - « نعم ، أظنها قتل رضيع . » - « قتل رضيع ؟ ولكنك تعلم أن هذه جريمة لا ترتكها إلا أم نحو وليدها ؟ » - « هذا صحيح . »^(١) - « وما هي الملابس التي صاحبت وقوع هذا الحلم ؟ ما الذي حدث في الليلة السابقة عليه ؟ » - « ذلك ما أؤثر الامتناع عن الحديث عنه ، فهي مسألة حساسة . » - « ولكنني أحتاج إليها . وإلا صرفنا النظر عن فكرة تفسير هذا الحلم . » - « اسمع إذن : إنني لم أفصح الليلة الماضية بمنزلي بل بمنزل سيدة تعنى الشيء الكثير بالنسبة إلى . فلما استيقظنا في الصباح عدنا لما فعلناه من قبل . وبعدئذ نمت مرة ثانية وحلمت الحلم الذي رويته لك . » - « أهي سيدة متروجة ؟ » - « نعم . » - « وأنت لا تريد أن تعقب منها ولدا ؟ » - « كلا ، كلا ، فذلك ما قد يفصح سرنا . » - « ولست - إذن - تمارس الجماع السوي ؟ » - « إنني أحتاط فانسحب قبل الإنزال . » - « هل أفترض أنك قد أعملت هذه الحيلة أكثر من مرة تلك الليلة وأنت لم تكن واثقا من النجاح بعد تكرارك الأمر في الصباح ؟ » - « ممكن جدا . » - « إذن حلمك يحقق رغبة ؛ فهو يؤكد لك أنك لم تعقب ولدا أو أنك قتلته ، والأمران سيان ، وفي وسعي أن أبين لك من غير عناء ما هي الحلقات التي ربطت بينهما . أتذكر أننا كنا نتحدث منذ أيام قليلة عن متاعب الزواج وعن التناقض الذي في إباحتنا الجماع مع الاحتياط لمنع النسل في حين أننا نعد

(١) يحدث في كثير من الأحيان أن يروي الحلم منقوصاً في أول الأمر ولا تنبثق ذكرى الأجزاء المحذوقة إلا في أثناء التحليل . وحيثئذ يفصح دائماً أن هذه الأجزاء التي تضاف من بعد هي التي تزودنا بمفتاح تفسير الحلم . أنظر مناقشة نسيان الأحلام فيما بعد [القسم أ من الفصل السابع] .

كل تدخل يحدث بعد التقاء البويضة والحيوان المنوي وبعد تكون الجنين جريمة ؟ لقد تذكرنا بهذه المناسبة المناقشة التي دارت في القرون الوسطى عن اللحظة التي تنفذ فيها الروح إلى الجنين لأن تطبيق فكرة القتل لا يكون إلا ابتداء من هذه اللحظة . ثم إنك تعرف من غير شك قصيدة ليناو المروعة التي يسوى فيها بين قتل الرضع ومنع النسل . « - العجيب هو أنني قد فكرت في ليناو هذا الصباح ، كأنما جاء ذلك اتفاقاً . » - « ذلك صدى آخر لحلمك . وأريك الآن في حلمك تحقيقاً آخر ثانويًا لرغبة أخرى : ذلك أنك تسير إلى متزك والسيدة بذراعك ، أي أنك تأخذها إلى دارك^(١) بدل أن تقضى الليل بمتزها كما هو الأمر في الواقع . أما كون تحقيق الرغبة قد اتخذ في الحلم هذه الصورة غير السارة ، فأمر قد يكون له أكثر من سبب . فلعلك علمت من مقالتي في عليّة أعصبة الهيلة [فرويد ١٨٩٥ ب] أنني أدخل الجماع المنقطع في عداد العوامل التي تنشأ عنها الهيلة العصبية . وإنه ليتفق وذلك أن يتركك تكرارك مثل هذا الجماع في حالة من القلق صارت بعدئذ أحد العناصر المقومة لحلمك . ثم إنك تستغل هذه الحالة المزاجية لكي تخفي بها تحقيق رغبتك . وعلى أية حال فإن إشارتك إلى قتل الرضيع لم ينجل أمرها بعد . كيف اتفق أن خطرت لك تلك الجريمة التي تنفرد بها النساء ؟ » - « أعترف لك بأنني قد تورطت مرة - منذ بضع سنوات - في قصة شبيهة بهذه . فقد كنت مشغولاً عن إقدام إحدى الفتيات على الإجهاض لكي تدرأ ما نجم عن صلتها بي . ولم يكن لي أقل دخل في تنفيذ ما اعترمته ، ولكنني ظلت بالطبع زمناً طويلاً في خشية من أن ينفصح الأمر . » - « أفهم ذلك . وإن هذه الذكري لترودا بسبب ثان يرينا لم كان من الحتم أن يركبك القلق عند توحسك الإخفاق في حيلتك . »

وسمعي طيب شاب أروي هذا الحلم في قاعة محاضراتي ، ولا بد أن هذا الحلم قد أصاب من نفسه الشيء الكثير ؛ لأنه سارع إلى محاكاته بحلم من عنده طبق فيه ذات الأسلوب الفكري على موضوع مختلف : فهو قد أدى في اليوم السابق إقرار الدخول ، وكان إقراره صريحاً لا مواربة فيه ؛ لأنه لم يكن يملك سوى الشيء القليل ليقرب به . ثم بعد ذلك رأى في الحلم أن صديقا من معارفه يجيء إليه بعد اجتماع لجنة الضرائب ويبلغه أن جميع الإقرارات قد مرت من غير استيقاف إلا إقراره ؛ فقد أثار تشكك الجميع ، وأنه

(١) [heimfuhren ، يعني "أخذها إلى داره" ويعني أيضاً "تزوجها" .]

قد يدان من جراء ذلك بغرامة كبيرة . إن هذا الحلم ليس إلا قناعاً شفافاً لبسته الرغبة في أن يكون طبيياً ذا دخل كبير . وإنه ليذكر بقصة الفتاة التي نصحتها الناصحون بأن ترفض رجلاً طالب يدها ؛ لأنه رجل حاد المزاج ولأنه لا محالة سوف يتفاهم معها باللكمات بعد الزواج ، فكان أن أجابت الفتاة : « لو ضربني ! » فرغبة الفتاة في الاقتران شديدة حتى أنها لتقبل ضمن البيعة منغصات هذا الزواج ، بل تتمناها .

لو أني جمعت هذا النوع من الأحلام الشائعة أكبر الشيوخ (١) والتي تبدو تناقض نظريتي مناقضة مباشرة من حيث تحتوى على رغبة حيل دونها والتحقق أو من حيث تحتوى على أمر تصدف عنه النفس صدوقاً جلياً تحت عنوان «الأحلام المضادة للرجبات» ، لرأيت أنها ترتد جميعاً إلى مبدئين لم أذكر أحدهما بعد على كبير خطره في حياة الناس كما في أحلامهم . فأول قوة دافعة إلى هذه الأحلام هي الرغبة في أن أكون على خطأ . وتظهر هذه الأحلام في خلال العلاج دون أن تتخلف ، إذا مر المريض بفترة من المقاومة تجاهي ؛ وأستطيع أن أستثير عند المريض حلماً من هذا القبيل وأنا واثق أكبر الثقة من ذلك إذا شرحت له للمرة الأولى نظريتي في أن الحلم تحقيق رغبة (٢) . بل إنى أتوقع أن تجرى الأمور على هذا المنوال مع الكثيرين من قرأني ، فيمنعوا أنفسهم في الحلم إحدى رغباتها طواعية ، لا لغرض سوى التذليل على خطائي . ويصور لنا ذلك مرة أخرى الحلم الآتي - وهو آخر ما أذكر من هذا النوع من الأحلام التي تقع تحت العلاج . والحال هنا فتاة في مقتبل العمر استطاعت أن تستمر في علاجها بعد أن كافحت إرادة أهلها وإرادة من شاورتهم من أولى الأمر كفاحاً شاقاً ، رأت : أن أهلها يمنعونها عن الهوى إلى ، فتذكرني بما وعدتها إياه من المداومة على علاجها من غير مقابل إذا لزم ذلك ، ولكنني أجيبها : إنني لا أعرف اعتباراً لأحد في مسائل النقود .

الواقع أن تبين الرغبة في هذا المثال ليس أمراً سهلاً . بيد أننا نجد في جميع أمثال هذه الحالات مشكلة أخرى يعين حلها على حل المشكلة الأولى . فمن أين جاءت المريضة بهذه الكلمات التي وضعها على لساني في الحلم ؟ إن مثل هذا القول لم يصدر عني قط

(١) [أضيفت هذه الفقرة والتي تليها في عام ١٩٠٩ .]

(٢) لقد سمعت تكراراً في خلال السنوات القليلة الأخيرة كثيراً من هذه « الأحلام المضادة للرجبات » وكان أصحابها من المستعدين إلى محاضراتي ، وكانت أحلامهم هذه هي استجابتهم تجاه أول التقائهم « بنظرية الرغبة » في الأحلام .

بالطبع ، ولكن أخالها - هو صاحب التأثير الأعظم فيها - كان من اللطف بحيث خصني بهذه الملاحظة. والحلم -إذن- يهدف إلى إثبات صواب أخيها. وهي لا تصر على أن يكون الحق لأخيها هذا في الحلم وحده ، بل ذلك كان شاغل حياتها ودافعها إلى المرض .
وما هو ذا حلم آخر^(١) يبدو للوهلة الأولى أنه يواجه نظرية تحقيق الرغبة بصعوبات خاصة ، وهو حلم أتاه طيب وفسره (ورواه أوجست شتاركة ، ١٩١١) :

« أرى على العقلة الأخيرة من السبابة اليسرى أول آثار [Primäraffekt] السفسل »

إن المرء قد يحجم عن تفسير هذا الحلم بعد الروية ؛ فهو حلم واضح متناسق ، فيما خلا محتواه غير المرغوب فيه. ولكن أو أن أحدا تكلف مع ذلك عناء تحليله لعلم ، أن "Primäraffekt" تعادل "Primo Affectio" (الحب الأول) ، ولتبين أن القرحة المنفرة كانت - كما يقول شتاركة - « تمثل تحقيق رغبات ذات شحنة وجدانية شديدة . »

وأما الدافع الثاني إلى الأحلام المضادة للرغبات^(٢) . فواضح حتى ليسهل خطر إغفاله ، كما كان الشأن معي زمنا طويلا. ذلك أن التكوين الجنسي يضم عند كثير من الناس مقوما ماسوشيا ينشأ عن انقلاب المقوم العدواني السادى إلى ضده . ويسمى أمثال هؤلاء الناس ماسوشيين « نفسيين » إذا لم يلتمسوا اللذة في إيقاع الألم الجسمى بأنفسهم ، بل في المذلة وعذاب النفس . وندرك على الفور أن هؤلاء الأشخاص قد تقع لهم أحلام برغبات مضادة أو أحلام مثلة ، وهي مع ذلك لا تخرج عن أن تكون تحقيقات رغبات ؛ لأنها تشبع نوازعهم الماسوشية . وإليك حلما من هذا القبيل ، وهو لشاب كان يعذب في صباه أخاه الأكبر شر العذاب وكان له بهذا الأخ شغف جنسى ، فلما تغير طبعه تغيرا أساسيا جاءه ذلك الحلم على ثلاثة أجزاء : ١- أخوه الأكبر يفيظه . ٢- شخصان بالفان يلاطف أحدهما الآخر لغاية جنسية مثلية . ٣- باع أخوه المؤسسة التجارية التي كان يطمع في إدارتها يوما. ويستيقظ الحالم من الحلم الأخير نهباً لأشد الأحاسيس ألما . والحلم مع ذلك حلم رغبة ماسوشية تمكن ترجمته على هذا النحو : إنه لجزء عدل أن يعقد أخى هذا البيع على كره منى عقابا لى على كل ما اضطر إلى احتماله من العذاب على يدي .
أرجو أن تكون الأمثلة المتقدمة كافية - حتى يظهر اعتراض جديد - في تسوية

(١) [أضيف ذكر هذا الحلم مع التعقيب عليه في عام ١٩١٤ .]

(٢) [وهو الدافع الذى قال فرويد في الصفحة السابقة إنه لم يذكره بعد- أضيفت هذه الفقرة في عام ١٩٠٩ .]

القول بوجوب تحليل الأحلام الألبية المحتوى كما لو كانت هي أيضا تحقق رغبات^(١) . ومن الواجب كذلك ألا نعد الأمر صدفة إذا كان تفسير هذه الأحلام يوقفنا في كل مرة على موضوعات ينفر الناس من التحدث عنها أو التفكير فيها . فلا شك في أن الشعور الأليم الذى تثيره هذه الأحلام لا يختلف من النفور الذى يحدونا - بنجاح في غالب الأحيان - إلى الإمساك عن معالجة هذه الموضوعات أو ذكرها والذى تتحتم على كل منا مغالبتة إذا لم نجد مع ذلك بدا من مواجهتها . بيد أن هذا الشعور غير اللاذ الذى يتردد تبعاً لذلك في الأحلام لا يمنع من أن تكون ثمرة رغبة من الرغبات ؛ فلكل امرئ رغبات يؤثر كتمها عن غيره من الناس ، بل رغبات لا يريد أن يصارح نفسه بها . ونحن ، من ناحية أخرى ، محقون حين نربط بين الطابع غير اللاذ لهذه الأحلام جميعاً وبين واقعة تشويه الحلم ، وحين نخلص إلى أن تلك الأحلام إنما نالها ذلك التشويه وأن تحقيق الرغبة إنما تقع فيها إلى حد الخفاء لأن ثمرة نفورا من موضوع الحلم أو من الرغبة المتفرعة عنه ، ونية مبيتة على كبتها . وهكذا يتضح أن تشويه الحلم هو في الحقيقة فعل من أفعال الرقابة . ونحن إذن ندخل في حسابنا كل ما قد أظهره إلى الضوء تحليل الأحلام غير اللاذ حين نعدل الصيغة التى أردنا أن نعرب بها عن ماهية الحلم هذا التعديل : الحلم تحقيق (مقنع) لرغبة (مقموعة أو مكبوتة)^(٢) .

(١) أشير هنا إلى أننى لم أفرض بعد من هذا الموضوع فروغاً تاماً ، وسوف أعود إليه فيما بعد [أنظر "أعلام العقاب" في الفهرست التحليل .]
 (٢) [هامش أضيف عام ١٩١٤ :] لقد توصل كاتب معاصر كبير - وهو على ما علمت يرفض أن يسمع كلمة واحدة عن التحليل النفسى أو عن تفسير الأحلام - إلى صيغة في ماهية الحلم لا تكاد تختلف من تلك التى وضعتها ، فهو يقول : إن الحلم " انبعاث من غير تصريح لرغبات وأمان مقموعة ، تحت ملامح وأسماء مزيفة . " (شپيتلر ، ١٩١٤) .
 [١٩١١ :] وأستبق الأمور هنا بذكر التوصيع والتعديل اللذين أدخلتهما أوتو رانك على الصيغة الأساسية المذكورة في النص : " إن الحلم يصور دائماً ، في صورة مقنعة رمزية ، تحقق رغبات حاضرة ، هى أيضاً في القاعدة رغبات جنسية ، وذلك بالاستناد إلى مواد مستندة من الحياة الجنسية الطفلية المكبوتة وبمعاونتها . " (رانك ، ١٩١٠) .

[١٩٢٥ :] هذا ولم يحدث قط أى ذكرت في أى موضع من المواضع أن صيغة رانك تعرب عن رأيه . وإن الصيغة الأقصر ، على ما وردت عليه في النص ، لتبدو لى واقية بالفرض . ولكن مجرد ذكر التعديل الذى أدخله رانك كان كافياً لأن تنهال على التحليل النفسى اتهامات لا يحصى عددها ، مؤداها أن التحليل النفسى يؤكد أن جميع الأحلام ذات محتوى جنسى . وهذه الجملة إذا فهمت بالمعنى الذى يراد فهمه منها فإنما تدل على مدى التجرد من الضمير الذى يظهره النقاد في قيامهم بعملهم ، وعلى مدى مسارعة الخصوم إلى التماهى عن كل

تبقى الآن أحلام الهيلة من حيث هي نوع أسفل من أنواع الأحلام الأليمة المحتوى ، وهي التي سوف يلاقى تصورهما على أنها أحلام رغبة أقل الترحيب ممن لا يعلمون . غير أنى لا أستطيع مع ذلك أن أعرض لأحلام الهيلة فى هذا الموضوع إلا عرضاً موجزاً غاية الإيجاز . وذلك لأنها لا تواجهنا بوجه جديد لمشكلة الحلم ، وإنما المشكلة هنا هي أن نفهم الهيلة العصابية بوجه عام . فالهيلة التي نستشعرها فى الحلم لا يعللها محتوى ذلك الحلم إلا فى الظاهر . فإذا أخضعنا محتوى الحلم للتحليل رأينا أن الهيلة فى ذلك الحلم لا تعلل بمحتواه [الظاهر] خيراً مما تعلل الهيلة فى مخافة من المخاوف المرضية بالفكرة التي تقترن بها هذه المخافة — مثلاً . فن الحق — مثلاً — أن المرء قد يقع من الشباك وأن على المرء لهذا السبب أن يأخذ ببعض الحيلة إذا وقف قريباً من الشباك ، لكننا لا نفهم لم كانت الهيلة فى مخافة الشبايك كبيرة إلى هذا الحد ولم كانت تلاحق ضحاياها ملاحقة تعدو ما تجيزه علتها الظاهرة بمدى بعيد . والذي نكتشفه عندئذ هو أن ذات التعليل يصدق على المخافة المرضية مثلما يصدق على حلم الهيلة : فالهيلة فى كلتا الحالتين إنما تلتصق إلصاقاً بالفكرة التي تصحبها ، وأما منبعها فشيء آخر .

هذه العلاقة الوثيقة بين الهيلة فى الحلم والهيلة فى العصاب ^(١) لا تترك لى مفراً من

قضية مهما بلغ وضوحها ، ما دامت لا تتلام ويزعاجهم العدوانية ؛ إذ يكنى القارئ أن يرجع صفحات قليلة إلى الوراء ليرى أنني ذكرت أحلاماً تحقق عند الأطفال رغبات متنوعة (كزهوة بالبر أو ببحيرة ، أو كتمويض أكلة فاتت ، إلخ .) ، كما ذكرت فى موضع آخر أحلاماً أثارها العطش أو الحاجة إلى التبول وأخرى لا تخرج عن أن تكون أحلام استسهال . بل إن رانك نفسه لا يرسل القول على إطلاقه ؛ فهو يقول : ” هي أيضاً فى القاعدة رغبات جنسية “ ، وهو قول يمكن تأييده تأييداً واسعاً فى أحلام معظم الراشدين .

ولقد كان الموقف يختلف لو كان نقادى استخدموا لفظ ” جنسية “ بالمعنى الذى شاع استخدامه فى اليوم فى التحليل النفسى — معنى ” إيروس “ [اسم يونانى لإله الحب كان من حظه أنه صار يستخدم منذ قديم كاسم كلى لجميع النوازع المتجهة — فى الطبيعة كما فى الإنسان — إلى التوحيد والخلق ، فى مقابل التفرقة والهدم أو السلب] . ولكن نقادى كانوا بعيدين غاية البعد عن أن يفكروا فى تلك المشكلة الهامة : هل الأحلام جميعها من خلق القوى الغريزية ” الليبيدية “ (فى مقابل ” التسميرية “) ؟

(١) [الهيلة Angst لغة هي المخافة من الأمر لا يدرى المرء ماذا يهجم عليه منه . ويراد بها فى التحليل النفسى الخوف الذى يكون من ممكن مستقبل فحسب (كهيبوب العاصفة أو الرسوب فى الامتحان أو — أخيراً — الموت) وليس من موضوع بعينه (كالرضاء أو النار) . ولكن كلمة ” Angst “ يكثر أيضاً استخدامها فى اللغة الألمانية للدلالة على الخوف مجرداً وبأى درجة من درجاته ، وقد يجربها فرويد بهذا المعنى . ويقال أيضاً فى العربية ” الهول “ ولكننا لم نكد نستخدمه قط لشيوع معناه فى غير ذلك — هذا وقد احتفظنا بكلمة ” القلق “ لترجمة معنى ” Sorge “ أو ” Worry “ .]

الإشارة إلى الثانية عند مناقشة الأولى . لقد قلت منذ زمن ما في مقال قصير عن عصاب الهيلة (فرويد ، ١٨٩٥ ب) : إن الهيلة العصابية تنشأ عن الحياة الجنسية ، وأنها توافق لبيبدو صرفت عن غايتها ولم تجد شاغلا يشغلها . ومنذ ذلك الوقت لم تجد هذه القضية إلا ما يزيدها ثبوتاً . وهي تمكنتنا الآن من أن نستخلص منها أن أحلام الهيلة أحلام ذات محتوى جنسى ، تحولت الليبدو المتصلة بها إلى هيلة . وسوف يتسع المقام فيما بعد لتأييد هذه القضية بتحليل بعض أحلام المرضى العصبيين . كما سوف يتاح لي في خلال محاولة قادمة من أجل الوصول إلى نظرية في الحلم أن أتحدث عن شروط أحلام الهيلة وعن اتفاقها مع نظرية تحقيق الرغبة [ص ٥٦٧ وما بعدها .]